الشيخة مسعودة

(١)

هي عجوز شمطاء، جاوزت الثمانين من عمرها، ورثت التسوُّل عن والديها وأخذته مهنة لها..

اكتنزت عشرات الآلاف من وراء هذه المهنة!

لم تتزوج، وأقاربها ومعارفها قليلون، والبعض يتقرّب منها طمعًا في ثروتها التي كانت تحتفظ بها في صندوق من الخشب بمسكنها الفقير المتواضع، الذي يتكون من غرفة واحدة، ودورة مياه عفا عليها الزمن!

وكانت تدّعى الفقر دائمًا أمام الجيران، ولا تبوح بسرها لأحد، وكانت تستعين بصبي صغير من الحي الذي تقطن فيه يُدعى «منصور» في جولاتها بعيدًا عن محل إقامتها بملابسها الرثة باهتة الألوان، والتي لا تُفرّق بين صيف وشتاء، ولا تكترث بدرجة الحرارة أو البرودة!

وكانت تبدأ جولتها اليومية بمصاحبة «منصور» في الصباح الباكر، وتنتهي عند الغروب.. ولم يكن لمنصور مصدر رزق أو عمل أو مدرسة، لذا كانت تغدق عليه بسخاء، ولا تحرمه من المصروف اليومي، وشراء الحلوى والملابس الجديدة في الأعياد والمناسبات.

وكانا في نهاية اليوم يبتاعان المأكولات الشهية والفاكهة بعيدًا عن أعيُن الناس..

ولما كبر الصبي وشبَّ على الطوق، وأصبح فتى يافعًا بدأ يهتم بمظهره في أوقات الراحة، ويلبس البنطلون والقميص الإفرنجي!، مما لَفت أنظار بنات الحي، فبدأن في معاكسته ومغازلته!.

والداه (على أد حالهما) يعملان في تنظيف شقق الناس الغلابة.

وبحُكم الغريزة– نظرًا لبلوغه– وقع في علاقة غرامية مع بنت من المعجبات تُدعى «سنيورة». وعندما علمت العجوز بذلك شجَّعته على الاستمرار في الحب مع «سنيورة» فهذا من حقه!

وكانت تبتاع له الهدايا ليقدمها لسنيورة، فهي الأخرى كانت تحب..!

كانت تحب رجلًا طاعنًا في السن هو الآخر، حيث كانا

على علاقة وصداقة منذ زمن بعيد، ولم يتزوج هو الآخر بسبب الفقر واعتلال الصحة!

وكان يحمل صندوقه الخشبي فوق ظهره و»يسرح» به على المقاهي المجاورة لمسح أحذية الزبائن، وكانت (ترزق واهي عيشة وأخرتها موت).

وكان يقول لمسعودة (مش أحسن من الشحاتة؟!).

وفي نهاية المطاف يستوي الفقير والغني تحت التراب.

وكان يزورها ليلًا بين الحين والآخر، ويشرب معها الشاي الأسود، ويُدخّن (الجوزة)، ولا يحرمها من بعض كلمات الغزل.

.....

وذات يوم تخلّف الفتى منصور عن الحضور لمسعودة لاصطحابها في جولتها كالمعتاد، وأرسل لها «سنيورة» بدلًا منه للقيام بهذه المهمة.

واستمرت معها لعدة أيام، وكانت (مبسوطة) منها وزاد الرزق على يديها، لدرجة أن أغلب المحسنين كان من الشباب، طمعًا في معاكسة سنيورة ومغازلتها.

وكانت مسعودة تسأل عن منصور يوميًّا، متأكدة من أن البنت تعرف أخباره أولاً بأول بحكم العلاقة التي بينهما، لكنها

كانت تُنكر معرفة أي أخبار عنه.

وعندما لاحظت مسعودة وجود قرط من الذهب في أذني سنيورة، أصرت على أن تعرف مصدره، حيث إن إمكانيات أسرتها لا تسمح بشراء مثل هذا القرط، وبعد إلحاح شديد اعترفت البنت بأن منصور قدمه لها هدية في عيد ميلادها!

ولدهشتها العظيمة سألت البنت: من أين أتى منصور بهذا القرط (لازم أعرف منه، وليه يخبي عليّ!)، فأجابت البنت قائلة:

- قالّي إنه اشتغل شغلانة حلوة.

فعقَّبت مسعودة قائلة وقد ازدادت دهشتها واتسعت عيناها:

- وإيه هي الشغلانة اللي تجيب الخير ده كله في كام يوم؟
- الله أعلم، هو قالّي كده.

ومصمصت العجوز شفتيها غير مقتنعة، ولزمت الصمت.

وبعد قليل استطردت:

- طب يا بنتي ربنا يرزقه ويرزقنا.

ولم تمر أيام قليلة حتى تم القبض على عصابة من الشباب لسرقة محلات الذهب، وكان من بينها الفتى منصور!، حيث تم القبض عليه من فوق السطوح، وركب سيارة الشرطة مكبَّلًا

بالقيود مع باقي أفراد العصابة أمام أنظار أهل الحي، ومن بينهم مسعودة وسنيورة.

سنيورة التي انهارت، وراحت تصرخ وتتمرغ في التراب، فيما راحت مسعودة (تطيِّب خاطرها)، وتطبطب عليها قائلة:

- معلش يا بنتي قومي، أنا برضو من ساعتها قولت إن فيه حاجة غلط، العيال ضحكوا عليه وجرفوه في تيارهم، التسوُّل مش حرام ولا عيب، لكن السرقة والنشل والنصب أكبر حرام!، الواد غلبان ومؤدب ملوش في الحاجات دي، الله يجازي أولاد الحرام!

ثم استطرت قائلة:

- أنا واثقة إن الواد ده مظلوم، ولا يهمك يا بت أنا هقوّم له أكبر محامي!

فقامت سنيورة ونفَّضت ملابسها، وفي المساء ذهبت لمنصور في الحجز، وأخذت له مأكولات ومشروبات، وراحت تواسيه، وأقسم لها أنه بريء، ولم يسرق شيئًا من المحل، وكان يقف في الخارج فقط لمراقبة الطريق!!، وطمأنته بأن مسعودة سوف تكلف محاميًا للدفاع عنه.

وفي اليوم التالي تم عرضه على النيابة، وتم الإفراج عنه بكفالة

قدرها خمسمائة جنيه، دفعتها الشيخة مسعودة دون تردد، بالإضافة إلى أتعاب المحامي.

.....

وعند أول مقابلة لها بمنصور، راحت الشيخة مسعودة تُسدي له النصح كي ينفصل عن عصابة سرقة محلات الذهب أو غيرها، وأن يسعى إلى العمل بمهنة شريفة، توفر له لقمة عيش نظيفة، كما أكدت له أن «الشحاتة» مهنة شريفة، وليس فيها نصب أو احتيال!، وأن الذي يعطي شيئًا لله، يعطيه برضا دون إجباره عليه!، كما أن «الشحاتة» تدر دخلًا محترمًا، كل يوم على رزق جديد.

فسمع لها وهز رأسه وانصرف، ولم يمنع سنيورة من اصطحابها في جولاتها اليومية، وكان يستولى على كل ما تحصل عليه من نقود.

ومع الأيام نضجت البنت، واستدار صدرها وردفاها، واحمرت وجنتاها (كالتفاح الأمريكاني!)، فلفتت الأنظار إليها أكثر وأكثر، لدرجة أن فتى من جدعان الحي طلبها للزواج من الشيخة مسعودة.

ولما علِم منصور بذلك جن جنونه، وذهب من فوره إلى هذا الولد في الورشة التي يعمل بها وجذبه من قميصه، ونشبت بينهما معركة شرسة كادت تودي بحياة منصور لولا تدخّل الأهالي وفضها.

وانصرف منصور متوعدًا الآخر بما سيحدث له إذا تعرَّض للبنت مرة أخرى، ولما علِم والدها بذلك (وهو عامل بسيط بمجلس المدينة) ذهب إلى منصور في منزله وهدده أمام والديه بعدم التعرض لابنته.

لكن البنت راحت تقابله سرًا (تحت السلم)، ولا تحرمه من قُبلة أو أكثر عند اللقاء.

وكانت كل مرة تنصرف مرتعدة خوفًا من افتضاح أمرها..

وكثر عدد المعجبين بالبنت، وكانت تجاريهم جميعًا، ولكن القلب له واحد فقط وهو منصور.

وعندما لاحظت الشيخة مسعودة انشغال البنت بالشباب الذين يتزايد عددهم يومًا بعد يوم، رفضت أن تصمت أمام هذا الموضوع، حيث إنها مسئولة عنها.

وذات مساء استدعت البنت بمنزلها، وطلبت منها أن تحدد مصيرها مع منصور أو غيره، فهي الآن كبرت وتعرف مصلحتها جيدًا، ولا داعي لتضييع الوقت (في الكلام الفارغ)، ولا يجب الانتظار حتى يحدث ما لا تُحمد عقباه..

وفي ختام حديثها، أكدت لها أنها مستعدة لمساعدتها، وتلبية كل طلباتها، أما عن البنت فقد طلبت مهلة للتفكير طالما أن

الموضوع (دخل في الجد).

.....

حاول منصور مقابلة البنت والانفراد بها كالمعتاد، ولكنها نهرته بشدة واشتكته لمسعودة التي استدعته ونهرته هي الأخرى، وطلبت منه الامتناع عن اللعب ببنات الناس، وفي حالة رغبته في الزواج منها فعلاً بشرط أن يكون قادرًا على تحمل المسئولية، وفتح بيت، والإنفاق عليه عن طريق مشروع، بعيدًا عن الأولاد الفاسدين إياهم، فعليه أن يتقدَّم لطلبها من ذويها رسميًا، وأن هذه أخر مرة تحذِّره فيها من مقابلة البنت في الخفاء، كما عرضت عليه أية مساعدة يطلبها منها.

والحق أن منصور كان يعمل لمسعودة ألف حساب، ويسمع كلامها، فهي أولًا وأخيرًا صاحبة فضل عليه منذ الصغر، فانصرف ووعدها بأنه سوف يأخذ خطوة جادة في هذا الأمر قريبًا ويرد عليها، بينما علمتْ البنت من أبيها أن موظفًا من زملائه في العمل، حاصلاً على دبلوم، سوف يتقدَّم لها، وعندما علِم منصور بذلك هاج وماج، وقال لنفسه قطعًا سوف تفضِّله عليّ (طبعًا دبلوم أحسن من راسب إعدادية، وأنا أستاهل أكتر من كدة، أنا ضيَّعت نفسي، وياما ناس نصحوني أكمّل تعليمي وماسمعتش الكلام).

وأسرع منصور إلى مسعودة، وطلب منها تعطيل هذا الموضوع بعض الوقت لحين عرض الأمر على والديه..

وبعرض الأمر على والده لم يرحِّب في بادئ الأمر قائلًا له:

- إنت فاكر أبوك إيه!، هنضحك على بنات الناس، الموضوع ده عايز استعداد، وعايز إمكانيات.. ده مش لعب عيال، أنا مقدرش أتعرض لحاجة زي دي أبدًا وإنت عارف البير وغطاه، لازم يكون في جيبي على الأقل ألفين جينه..

وبعد تفكير قال الأب:

- يا ابني من جهة السكن ممكن نفضيلك أوضة فوق تتجوِّز فيها، أهو البيت كبير والملك أحسن من الإيجار، ولما ربنا يكرمك تبقى تأجرلك شقة، أو تقدم على شقة بمجلس المدينة، وتستقل بنفسك.

ثم نظر والده إلى زوجته وهي جالسة على الأرض، وواضعة رأسها بين راحتيها قائلاً:

- ولا الكلام ده غلط يا أم منصور؟، ده كله ولد واحد بس ربنا يصلح حاله ويبعد عنه أولاد الحرام.

فرفعت الوالدة رأسها وقالت:

- والله كلامك عين العقل يا أبو منصور، واللي يعمله ربنا يكون.

ونظر الولد إلى أمه مداعبًا ومتوسلًا ثم قال:

- طب والفلوس يا أم منصور؟

فاستطردت المرأة قائلة بصوتها الضعيف:

- ولدي يا ابني يا حبيبي أنت ناظر لحتة الغويشة اليتيمة اللي في إيدي واللي جبتها بطلوع الروح، مهو محيلتناش إلا هي يا ابني.

ولم ينطق أحدهما بكلمة حتى استطردت الأم قائلة:

- حاضر يا خويا بكرة الصبح هعرضها على «الخواجة عزمي» واشوفها هتجيب كام، بس لو رضيت تطلع من إيدي!، ونجيب للبت حتة شبكة على أد الحال عشان تكون مبسوطة.

وكاد الولد يطير من الفرحة، وأخر النهار ذهب إلى الشيخة مسعودة، وكانت البنت هناك، وأخبرهما بالخبر السار، وطلبوا موافقة البنت فوافقت بدون تردد، قائلة:

- بس المهم أبويا يوافق.

كما أخبرهما أنه والحمد لله يعمل عند أحد التجار، ويحصل

على مرتب معقول، وتم التأمين عليه، (والمرتب هايزيد كل سنة، والراجل مبسوط مني جدًا، وهاتبقى القشية معدن!).

وفرحت الشيخة مسعودة جدًا، ثم طبطبت على منصور قائلة:

- خلِّي موافقة أبو سنيورة عليا يا واد، مبروك عليكم مقدمًا يا ابني.

ووافقت على الذهاب مع أهل العريس في اليوم التالي لمنزل أبي سنيورة لطلب يدها والاتفاق على تحديد موعد «كَتْبِ الكتاب».

ومن المعروف أنه لا أحد في الحي بأكمله يستطيع أن يرفض للشيخة مسعودة طلبًا.

.....

وفي اليوم التالي حسب الاتفاق، توجَّه أهل منصور ومعهم الشيخة مسعودة لمنزل أبي سنيورة، فرحَّبوا بهم جدًا، وارتسمت الابتسامة على الوجوه، وتمت الموافقة والاتفاق على كل شيء، على أن يتم «كَتْب الكتاب» يوم الخميس القادم، وأثناء الزيارة صرَّحت الشيخة مسعودة أمام الجميع أن هديتها للعروسين هي جميع الأجهزة الكهربائية!

فلما دُهِشَ الحاضرون، ولم يصدقوا ذلك، أكدت لهم: (ده من فضل الله عليّا، وأنا ما أعطيتش شيء من عندي، ودول أولادي وأنا اللي مربياهم).

ثم استطردت في دعابة:

- ولا انتوا كبرتوا عليَّا يا أولاد؟

فضحك الجميع من قلوبهم، ودعوا للشيخة مسعودة بدوام الستر والصحة، فهي تأخذ من الناس قروشًا وتردها آلافًا للمحتاجين، كما كانت تتبرَّع في الخفاء للملاجئ والجمعيات الخيرية.

وفي اليوم المحدد حضر الأهالي والجيران «كتب كتاب» منصور على سنيورة، ودقَّت «المزيكا» في الحارة، وقام أصدقاء العروسين بالرقص وتوزيع الشربات على الحاضرين، بينما كانت الشيخة مسعودة تفكر في اختيار مرافق آخر لها في جولاتها.